التخبط الفكري العربي..

يوسف سلامة نموذجاً

الإيمان بالنموذجية الإطلاقية لحضارة الغرب

-١-

ما الذي يحدث للثقافة العربية هذه الأيام؟ وإذا شئنا المزيد من الدقة: ما الذي لم يحدث لهذه الثقافة خلال هذا العقد الأخير من قرننا العشرين الذي يوشك أن ينصرم؟!

على أننا إذ نورد عبارة (الثقافة العربية) فإننا نورد مصطلحاً تتعدد صيغ فهمه، وتتداخل حدود مدلولاته، ويختلط فيه (تصور ماضوي) محض بنثارات علمٍ حديث مقبوس، تقتحم –داخله– (أفكار التبعية) كل بقايا تأسيسات ما هو فكري مقاوم مما بدأ، وتنامى، وأحبط خلال هذا القرن وحده على الأقل. ومع انهيار الأيديولوجيات، التي أعقبت سيادتها الفكرية ما كان سائداً خلال فترات مقاومة الاستعمار القديم قبل الاستقلالات الوطنية العربية عموماً، بدأ اشتداد الميل إلى تبني شذرات منتقاة من الفكر الليبرالي الرأسمالي العربي.. وفي آخر صيغة لتطورات هذا الفكر، مع ميل إلى إعادة صوغها في (قوالب فلسفية)، أو على الأقل هكذا يبدو للوهلة الأولى، مع خلطة من التوليفات الفكرية

التي تجعل تلك الشذرات مقبولة من المتلقي العربي بعد أن محقت عقله شعارات الأيديولوجيا خلال نصف قرن على الأقل بمختلف أشكالها وألوانها الدينية والدنيوية.

ولقد رأينا "مفكرين" كثرا ممن ملؤوا عقودا سابقة بأطروحاتهم (الثبوتية) يغيرون مواقعهم: متخبطين وغير متخبطين، بعمد ومن غير عمد!..

ورأينا آخرين رغم صلابة منهجهم وعمق رؤاهم ومعرفتهم بما جناه الغرب على العالم يقعون في مطبات صغيرة لكنها جوهرية من مثل ذلك المطب العاثر الذي عالجناه في المقالة السابقة لدى إدوارد سعيد –مطب واحد ليس غير!– بخصوص الهوية والهجنة.

ومن المؤسف أن يكون كل من (التاريخ) و(الهوية) في أهميتهما ومعناهما، هما مثار الشك والظنون والحط من القيمة في ما يخص عملية النهوض والتقدم من قبل كثير ممن أصبحوا فجأة مفكرين، (ومشروعات فلاسفة) من العرب لا سواهم.ودائماً أود أن أؤكد أنني لا أريد الانتقاص من قيمة أحد ممن أحاور أفكاره في هذه المقالات، لكن حق الحوار يبيح أن يتناول فيه المرء ما يراه مغلوطاً من الأفكار– قياساً إلى منظومته الفكرية الشخصية– وأن يقسو في حواره ونقاشه بالقدر الذي لا يسيء، خصوصاً عندما تصب الأفكار التي هي قيد النقاش والمجادلة في ما لا يخدم عملية استبناء نظام فكري عربي جديد، مقاومة للعولمة واحتمالات الكارثة التي قد توصل البشرية إليها.

واستناداً إلى حق الحوار هذا ومقتضياته سنقوم بمجادلة الآراء التي قالها (الدكتور يوسف سلامة) في المقابلة التي

أجرتها معه (تهامة الجندي) ونشرتها (الكفاح العربي) يوم ١٩٩٩/١٠/٢٠ بمناسبة محاضرة له عن (صراع الحضارات).

-٢-

مبدئياً يعتقد الدكتور سلامة أن: (العلاقة بين الحضارات هي علاقة صراع) وهذا شيء لا علاقة له بأطروحة هنتغتون عن (صراع الحضارات)، بل هو يقصد أن علاقة التفاعل الطبيعي بين الحضارات يحكمها الصراع حتماً. وقد يتفق المرء معه في ذلك بهذا القدر أو ذاك أو قد يختلف، ولكن ذلك لم يكن ليغدو ذا أهمية لولا أنه يأتي في سياق تدان فيه الحضارة العربية لمصلحة الحضارة الغربية. يقول سلامة: (وعلاقة الثقافة العربية، التي تنتمي إلى عصور غابرة، مع الغرب، هي علاقة صراع. والغرب هو الأقوى، وهو الأكثر مدنية والأكثر تقدماً والأشد سطوة، وهو الذي يمتلك المعايير الأقوى لحقوق الإنسان). ولن نكمل الاقتباس، فالكلام الذي يلي هو نوع الكلام الخطابي الذي يجعل مضمون المقبوس السابق مقبولاً من القارئ بشكل عام.

وسنؤجل أو نهمل مسألة انتماء الثقافة العربية إلى عصور غابرة، ولكننا نتساءل بغير قليل من الدهشة: هل حقاً يمتلك الغرب المعايير الأقوى لحقوق الإنسان؟! وأي إنسان؟!.. إن هذه الكلمة المطاطة لا تعني بشر العالم غير الغربي. وهي في أصل فكر الغرب الحديث تعني (الإنسان البرجوازي) أي الإنسان الذي يملك، ونحن هنا –مباشرة– أمام قيمة الملكية التي تحدد قيمة هذا الإنسان. وهذه واحدة! وهي تقع في جوهر حضارة الغرب لأن قيم هذه الحضارة ترتبط بها كلياً. وكل هذا أشد وضوحاً في

تاريخ هذا الغرب برمته من أن تساق الأمثلة للبرهنة عليه، لكن.. لو أن المقام يتسع لسقنا من الأمثلة ما يؤكد البرهان، كي لا يقال أننا نطلق الأحكام مجاناً!

ويقودنا هذا، مباشرة أيضاً، إلى نقض فكرة الدكتور سلامة المتعلقة بمعايير الحضارة الغربية وبممارسة سياسييها إذ يقول: (بإمكاننا أن نلوم– لاحظوا جيدا كلمة "نلوم" هذه!– الغرب وأن ندين بعض العناصر الثقافية، ولكن يجب ألا يتسع هذا اللوم بحيث ندين جوهر هذه الحضارة القائمة على العقل والتقدم والحرية وحقوق الإنسان والمساواة، حتى ولو لم يكن الغربيون مخلصين في تطبيق هذه المعايير على غيرهم. إن مظالم الساسة الغربيين والصفة الاستعمارية للغرب لا تعني بطلان المبادئ).

وحين نتمعن في هذا القول لا نستغرب فقط مثل هذا المنطق الذي يُصرف الكلام على هواه متناسياً أمر الوظائف التاريخية الكلية لتلك المعايير أو المبادئ وأمر تطوراتها في آخر صيغ الفكر الليبرالي الجديد، ولا ندهش فقط من أن الصفة الاستعمارية للغرب لا تعني بطلان المبادئ، كما يقول.. بل إن ما يغيظ حقاً في مثل هذا اللهو بالمفهومات –وليعذرنا الدكتور سلامة على العبارة– هو تجاهل تاريخ أوروبا ذاتها حتى منتصف هذا القرن، حيث يجد المرء أن الغربيين لم يطبقوا تلك المبادئ حتى على أنفسهم! ولكلمات (العقل، التقدم، الحرية، حقوق الإنسان، المساواة) دلالات مختلفة جداً في حقيقتها عما هو ظاهر في منطوقها. إنها ببساطة مترابطة ترابطاً لا فكاك منه مع مسألة (الملكية) حيث العقل والتقدم تجسدا في إنتاج التكنولوجيا على قاعدة البحوث العلمية التي حرضها التنافس والتناحر على التملك الذي هو جوهر الهيمنة الإمبريالية. ويحتكر الإمبرياليون الآن

إنتاج التكنولوجيا المتطورة مثلما يحتكرون الجديد المهم من معطيات البحث العلمي، فوظيفة شيء ما هي التي تحدد طبيعته، وبإمكان المرء أن يرى الآن أية كوارث تلوح في أفق المستقبل العالمي نتيجة ذاك العقل وذلك التقدم اللذين حددتهما السوق الابتزازية وقيمها التدميرية التي تشطب كل قيمة روحية في أعماق الإنسان وتحوله إلى سلعة هو ذاته! ولسنا ندري ما إذا كان الدكتور سلامة –وهو مدرس فلسفة في جامعة دمشق – يقر أن التيارات الفلسفية هي التعبيرات التجريدية عن تطورات حركة السوق وانعكاساتها أم لا.. وأن كلام (عصر الأنوار) وشعارات الثورة الفرنسية، هي أمور صارت كلها من (الأدبيات التاريخية)– إن صح التعبير– للغرب الرأسمالي المعاصر.

أما الحرية وحقوق الإنسان والمساواة – وفي الغرب تحديداً– فهي مظاهر تخص من يملكون من جهة، وهي مرتبطة بمقدار النهب والابتزاز من بقية البشر، وتمنح لمن لا يعارض ذلك معارضة فاعلة في العمق الاجتماعي الغربي من جهة أخرى. وخروقاتها –رغم كل الضجيج حولها– بينة في مختلف المستويات. ويعرف الدكتور سلامة، كما نعرف ويعرف غيرنا، أن الماركسية في القرن التاسع عشر إنما نشات– نظرية ونهج ممارسة– من أجل تحقق تلك المبادئ: في أوروبا أولاً!

إن الإنسان في الفكر الليبرالي الرأسمالي الغربي هو من (يملك)، أي أن قيم تملك الثروة هي التي تحدد قيمة الإنسان، وحجم إنسانيته المعترف به فعلياً. وهذا هو ببساطة جوهر الحضارة الأوروبية، أياً يكن تصريف الكلام بالطرق المعماة التي يستجرها المنطق الليبرالي. ولكن ما صلة هذا الجوهر بتاريخ أوروبا كله فعلاً!؟ هذا ما تجب مناقشته لإظهار أن أية

قطيعة مع الماضي لا تلغيه، بتاتاً!

-٣-

اعتمد الفكر الأوروبي الرأسمالي الحديث (معجزتين!!) ادّعى أنهما أصل أوروبا. أما الأولى فهي (المعجزة الإغريقية/ الرومانية) في المعرفة والعسكرة، وأما الثانية فهي (المعجزة العبرانية!) في التوحيد والتي هي أصل مسيحية أوروبا.

وبالطبع، لم تكن معجزة الإغريق فلسفية/ علمية بحتة- فهذه بدورها تطويرات لأصول شرقية، كما يوضح بيير روسي في: مدينة إيزيس أو البحث عن التاريخ الحقيقي للعرب – بل كانت معجزتهم في إنتاج ما يسمى (ديمقراطية عصر الرق) وفي إنتاج (عصر الرق) ذاته بالمعنى الاصطلاحي المحدد، حيث كان من يملك هو من يحق له أن يشارك في الحكم في أثينا ذاتها، أما في إسبارطة فأمر الرق أشد سوءاً والمالكون وحدهم لهم حق الحياة.. الخ مما يمكن تفصيله بجلاء كبير استناداً إلى مؤرخي اليونان أنفسهم، وحتى إلى كبار مؤرخي أوروبا الحديثة مثل توينبي.

وأما العسكرة الرومانية فقد عنت- وتعني- تعميم الاسترقاق القديم كنظام عالمي آنذاك. وقيم التملك في أساس ذلك كله واضحة بينة بصورة لا جدال فيها. وهذا كله- مرة أخرى- نمط أولي قديم لصورة الواقع الذي صنعه الغرب الرأسمالي حديثاً.

أما (المعجزة العبرانية!)- رغم تناقضها مع المسيحية، ورغم تهويد لوثر للمسيحية، ورغم تملص رأس المال من سيطرة الكنيسة وإعادة وضعها تحت سيطرته –فقد تم تبنيها لما فيها من قواعد قيمية لتملك المال بأي وسيلة سواء في التوراة أم

في التلمود.

إن التناغم بين النظام القيمي في (المعجزتين!) وبين تطلعات الرساميل التي صنعت أوروبا الحديثة وامتدادها صناعة كلية، هو أمر يوضح بدقة حياة التاريخ (أو الماضي) في الحاضر، خلافاً لما يقوله الدكتور سلامة. ولننظر أيضاً نظرة مقارنة بين الإقطاع في أوروبا وبين المتروبولات الاستعمارية، أليست الأخيرة صيغة مطورة للأولى مع فارق الجغرافيا والوسائل ورموز التملك؟!

ثم أليس طريفا أن تكون أول بنية رأسمالية قد ولدت في الدير (السسترسي) كما يقول توينبي في آخر مؤلفاته (تاريخ البشرية)؟! بإمكاننا أن نورد مزيداً من (وسائل الإيضاح) لحياة الماضي في الحاضر الأوروبي فلماذا يمنع الدكتور سلامة عن العرب أن يفكروا بتاريخهم وهو حقيقة، بينما يقبل (تصنيع أوروبا) الغريب لتاريخ مفتعل يربطها بالإغريق والرومان- العرق الآري المبدع! -من جهة، وباليهود المتفردين وحدهم بالإبداع بين (فصائل العرق السامي المفغل العاجز!!)؟!

وكيف نواجه التاريخ المصنع صهيونياً لاحتلال أرضنا واسترقاقنا أو إبادتنا إن أمكن، إذا كنا سنلغي تاريخنا الحضاري ونقيم تحته -كمرحلة انتقالية- باعتباره كوخا مهدها، كما يقول؟!

إن صناعة وحدة متصلة لتاريخ أوروبا: من الأغريق وروما إلى أوروبا وأميركا اليوم، وصناعة وحدة متصلة لتاريخ اليهودي المتصهين لهما أمران يدلان على قيمة (ثبات مبادئ الهوية)، وهو ما يجب أن نناقش فيه الدكتور سلامة من دون مهادنة. لكننا سنرجئ ذلك إلى فقرة لاحقة، إذ ثمة ما ينبغي

تصحيحه أولاً في منطلقات تفكير الرجل.

-٤-

يعتقد سلامة (أن لكل حضارة فكرة أساسية واحدة، هذه الفكرة تتجلى وتتجسد إذا ما نهضت الحضارة عليها، وإذا ما استطاع شعب من الشعوب تحقيق خصائص حضارة مستندة إلى هذه الفكرة التي تعكس الخصائص الجوهرية لثقافة هذا الشعب وبنائه الروحي.. فإذا ما نهضت حضارة ما على فكرة حضارية محددة، فإن هذه الفكرة لا تنهض عليها إلا فكرة واحدة. وعندما تتحقق الحضارة المستندة إلى فكرة معينة فإن من المتعذر لها أن تتبعث من جديد بعد انهيارها، ومن المتعذر أيضاً أن تنهض حضارة جديدة على الفكرة نفسها، وإن استحالة بعث الحضارة يضعنا أمام ضرورة جدية تقتضي مراجعة كل أفكارنا حول البعث والتجديد والإصلاح.. إن الحضارة إذا ما تحققت فإنها تتحقق في ظروف مكانية وزمانية محددة وفي إطار علاقات محددة مع ظروف العالم التي كانت في زمن نشوء هذه الحضارة وتجسيدها، وبالتالي فالحديث عن انبعاث الحضارة معناه أننا محتاجون إلى أن نبعث مجمل شروط العالم التي كانت سائدة حين تجسدت هذه الحضارة، وهذا أمر مستحيل فأنا لا أستطيع من أجل إحياء الحضارة العربية الإسلامية أن أبعث بيزنطة وفارس.. إلى آخره) وبقدر ما يبدو هذا المنطلق الفكري صورياً أو شكلانياً جداً يبدو متسماً بالسطحية ومتناقضاً داخلياً كما هو متناقض مع حقائق التاريخ. وخصوصاً تاريخ الغرب الذي لا يخفي الدكتور سلامة حماسته له كما رأينا قبلاً.

أما الصورية أو الشكلانية فتبدو في فكرة (بعث الحضارة).

فالرجل يتكلم في أفق النوستالجية /أي الاستعادة الكاملة التامة، ربما مع النبوة أيضاً.. ما دامت حضارتنا هي هدف الكلام/ وليس في أفق إحياء (الخصائص الجوهرية لثقافة الأمة وبنائها الروحي) والنظام القيمي الأساسي المرتبط بهما. أحقاً كي نبعث حضارتنا –وفق الأفق الثاني – نحتاج إلى بعث العالم القديم ببشره وشروطه، أم أن القضية قضية تمثل للجديد المعاصر والحديث، تبعاً لحاجات إنسانية شاملة يلبيها بنياننا الثقافي بخصائصه الجوهرية وبنائنا الروحي بنظامه القيمي الأساسي وهما جانبان يتعلقان (بالمبادئ) التي لا تبطل رغم مظالم ساسة تاريخنا، حسبما يقرر هو عن أوروبا؟!

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: هل (العقل والتقدم والحرية وحقوق الإنسان والمساواة والعدالة أيضاً وعدم ظلم الآخرين شعوباً وأفراداً وتحريم قتلهم وإبادتهم وإحترام معتقدات الآخرين..) كلها لا نص عليها في القرآن الكريم أساساً وفي السنة النبوية الصحيحة أيضاً؟! أم نفصل ذلك للدكتور سلامة في مكان آخر؟!.. وإذا ثبت هذا فهل (تبطل المبادئ) حسبما يقرر هو –مرة أخرى– إذا أساء ساسة تاريخنا تصرفهم وفق تلك المبادئ؟!.. إنه، على أي حال، مطب "الصورية" الذي لا يخلو من هدف سنراه.

إن الفكرة الواحدة التي تنهض عليها فكرة واحدة في حال تجسد حضارة ما، لهي (إنجاز فكري!) مميز للدكتور سلامة! ولكن التبسيط المصطنع بهذه الطريقة التي يؤسفنا أن نقول: إنها مضحكة، لهو تبسيط ذو هدف واحد وحيد. إنه استحالة بعثنا الحضاري! وهكذا فنحن لا نستطيع فعل ما فعلته أوروبا مع (المعجزة الإغريقية) لأن الدكتور في سياق حديثه عن (الفكرة

اليونانية) والحضارة التي تأسست عليها يتجاهل كلياً تلك الصلة التي اصطنعها الأوربيون النهضويون بها، واستمرت أساساً ونمطاً بدئياً للهيمنة الرأسمالية والإمبريالية، فهذا وما سبقه يتناقضان ذاتياً ويتناقضان مع حقائق حركة التطور التاريخي الحضاري وقوانينها المعروفة، لأن الرجل يريد أن يصل إلى هدف محدد: استحالة بعث حضارتنا، في الأفق الثاني لا في الأفق النوستالجي الذي تبناه كي يصادر على هذا البعث والتجدد الخاصين بنا، وما دام الدكتور يؤمن بأن ثقافتنا وحضارتنا تؤمنان بالاكتمال المعرفي والحقائق المطلقة حتى النصف الأول من القرن العشرين، بينما الغرب يؤمن بنسبية الحقائق العلمية المكتشفة، فعلينا فقط كي نتطور أن نتبنى توجهات الغرب مؤمنين بمبادئ حضارته التي يوحي حديثه بأننا لم نعرفها بتاتاً.

ولكن المفارقة هنا أننا نصل إلى الإيمان بالنموذجية الإطلاقية لحضارة الغرب، ولعل هذا ما أراد الدكتور سلامة أن يقودنا إليه!

-٥-

إن النقاش قد يطول على عدد من الآراء الأخرى الواردة في سياق المقابلة مع الدكتور سلامة، ولذلك سننتقل فوراً إلى رأيه في مسألة الهوية لنرى إلى أين يريد أن يصل يقول الدكتور سلامة:

(الهوية بمعناها التقليدي الثابت مفهوم لم يعد يقبله العقل اليوم، ولا الثقافة المعاصرة. الهوية اليوم هي حركة ونمو وتغير وتبدل دائم مع بقاء قدر من الثبات المحدود الذي يتيح لنا أن نتعرف إلى الكائن على أنه هو ذاته عبر تغيراته. بهذا المعنى

فإن الهوية هي وحدة تنوع، هي وجود وعدم، الوجود هو هـذا الثابت والعدم هو هذه المتغيرات، وبالتالي إذا كانت الهوية هـي جملة عمليات السلب والنفي التي تدخل على المعطى الأصلي أو على التصور الأولي، فهذا يعني أن ما هو ثابت في الهوية قـد يصل إلى حد لا يبدو معه ثابتاً بمعنى أننا قد ننتقل من عنصـر محدد معروف على أنه ثابت في الهوية، إلى عنصر آخر جديد. ومن هذا المنطلق يجب أن يكون واضحاً أن كل هوية هي فـي طبيعتها هوية موقتة، وليس هناك هوية دائمة، لأن الهوية بصفة عامة مرتبطة بالحضارة والفكرة الحضارية، وإذا مـا انقضـت الحضارة وفكرتها، فهذا يعني أن مجمل الهوية التي تنتمي إليهـا باتت عائقاً في وجه التقدم الحضاري اللاحق) وثمة بعـد ذلـك شرح لمعنى (الهوية المنفتحة) وكيف ينبغي أن تتعامل مع مبادئ حضارة الغرب المذكورة سابقاً باحترام!

والمهم هنا بعد المقدمة الطويلة، (المفلسفة) دون نجاح لمسألة عدم وجود ما هو ثابت في الهوية، إن الدكتور سلامة، وبمقارنـة حديثة بعضها ببعض، يرى أن (هويتنا) ليست موقتة بـل فائتـة. وهي التي تعوق تقدمنا –باعتبار أن حضارتنا تنتمي إلى عصـور غابرة، كما سبق أن نقلنا عنه– وليسـت آليـات عمـل الغـرب الاستعماري الذي يريد إثبات (هويته) على حساب إعدام هويـات الأقوام الأخرى تحت شعار العولمة التي أدخل فيها نمـط الحيـاة الإميركية مفهوم (هجنة الثقافات)– بتعبير إدوارد سعيد– سعياً إلى جعل ذلك النمط هو الوحيد المسيطر!!

وهكذ يمنح –باختصار –صك البراءة للغـرب الإمبريـالي وعولمته المقبلة. فالحق على "هويتنا" التي لم تنفتح بالقدر الـذي يكفي لموتها بتماهيها في هوية ذلك الغرب المـؤمرك المهـود

المعلوم، لكأن الهوية ليست هي (الخصائص الجوهرية لثقافة الأمة وبنائها الروحي)، ومنها وعلى قواعدها تتولد آليات وميكانيزمات التمثل الحضاري الجديد!

إذاً، الإمبريالية بريئة من قضية تخلفنا، وذنبنا على جنبنا- كما يقال- وهذا "فتح آخر جديد" حقا للدكتور سلامة ويستحق المزيد من التأمل ومن الشفقة على فكرنا العربي في هذه السنوات من التخبط المخيف.

❑❑